السفاحون والفتاة الشقراء

قصة بقلم محمد فكري

اجتزت قصر الكرملين وأنا أجنح بنفسي لاحتمي بالسور .. لملمت حولي أطراف معطفي وتقلصت في داخله .. كانت درجة الحرارة خمسا وثلاثين تحت الصفر ، والضباب يجثم على الارض فاتما رهيبا ، كأنه غاز غاشم أباح لنفسه أن يحتل الارض ويفصلها عن السماء .. وندف الجليد تغلف الاشجار وتكسو الطريق بالبياض .. ورذاذ الصقيع ينعر وجهي ويسلل الى رقبتي . ثبتت وشاحي حول عنقي ، وأحطت بالشبكة أذني ووجنتي ، فلم يعد ظاهرا سوى عيني وأنفي ، ورحت أطأ الجليد في طريقي الى سينما ((أودارنيك)) .

أحسست بالدفء ، في قاعة السينما الفسيحة ، وأعادت الاضواء الباهرة الي احساسي بهجة الحياة ، فتمالكت انفاسي ونلمست مكاني بين الصفوف .. كانت عن يميني فتاة شقراء جميلة ..فازددت ابتهاجا ، ومنيت نفسي بصداقة جديدة مع هذه الشقراء ، وما كدت انخذ مكاني حتى ملت نحوها في ابتسامة مهذبة ، وسألت :

ـ عفوا .. أي فيلم سيمثل الآن ؟

كانت الفتاة تجلس صامتة كأنها مستغرقة في تفكير عميق .. التفتت الي في هدوء ، وقالت بوجه متجهم :

ـ محاكمات نورمبرج .

وحاولت أن آخرجها عن صمتها فعدت أسأل :

ـ هل يبدأ الفيلم بعد كثير من الوقت ؟

ظلت الفتاة مستغرقة لحظة كأنها لا تريد ان تجيب ، تمتمت :

ـ لا أدري ..

وعادت الى صمتها مرة أخرى .

ولم تكد تتم قولها حتى أخذت القاعة في الاظلام ، وحينئذ اتجهت ببصرها نحو الشاشة ، ولم تعد تحس بشيء .

لكني انشغلت بالفتاة عن الفيلم ، لم هذا الوجوم الذي يغلف وجهها ؟ ولم هذا الرد الجاف المقتضب !؟ لقد كنت مهذبا معها للغاية.. لم أفعل ما يضايقها .. سألتها أسئلة عادية يمكن أن توجه من انسان لاي انسان .. ورغم ذلك يبدو لي ان الفتاة وديعة .. رقيقة ..

حينما توجهت بناظري الى الشاشة .. كانت ثمة محاكمة .. وثمة قضاة يحاكمون متهمين ، وبدأت خيوط الفيلم تتجمع في ذهني..القضاة من الحلفاء .. والمتهمون أعوان هتلر .. يجلسون صفا واحدا يبدو على وجوههم الوجوم ويخيم عليهم الصمت الرهيب .. والادعاء يحاور ويداور .. يتهم السفاحين ويوزع عليهم الجرائم التي اركبوها أثناء الحرب .. والكاميرا تعود مع الزمن .. فتصور الجرائم والفظائع ..

وسمعت همهمة صوت نسائي عن يساري ، والتفتت بحركة لا ارادية لارى امرأة ، واستطعت ان أميز ملامحها وقد اعتادت عيناي الرؤية في الظلام .. أنها تحمل ملامح أهل آسيا .. لكن لم أستطع أن أعرف من أي بلد على وجه التحديد .. وكان شعرها الرمادي تخالطه خصلات بيضاء .. ووجهها ينم عن أنها تخطت سن الشباب ، فوليت عنها وعدت أنظر الى الفتاة الشقراء .. جميلة .. رقيقة .. لم تتعد الخامسة والعشرين ، يتدلى شعرها الاشقر على جانب وجنتها ويحجب جزءا من أذنها ، فيبدو كاطار ذهبي لوجهها الجميل ، لكنها مشغولة عني بمتابعة الصور ، وحاولت أن أجذب انتباهها ، فربتت ساقها بركبي .. لكنها لم تشعر بشيء .. وعدت أربت ساقها مرة أخرى .. لكن الفتاة أستمرت في متابعة الصور كأن شيئا لم يحدث ، كنت أنتظر ـ على الاقل ـ أن لم تستجب لمداعبتي أن تقول شيئا .. أن تتململ .. لكنها لم تشعر حتى بوجودي .. فعدت أنظر الى الفيلم ..

القضاة لا زالوا يجلسون منتفشين كالديكة يبدو عليهم أنهم مقتنعون بكل التهم والجرائم ، وصور الحرب والقتلى والبنادق .. وفجأة تذكرت صديق عمري أحمد .. وعادت صورة الايام الرهيبةالتي عشناها في بورسعيد تجثم على ذهني .. وأنرصاصة تخترق قلب أحمد فيسقط على الارض مضرجا في دمائه ..

واختلطت صور القضاة وصور القتلى والدماء ، بالصور التي في ذهني .. واصبحت غامضة المعالم .. هل هؤلاء قتلى الفاشية أم قتلى العدوان على بورسعيد .. !! وفرضت الصور التي في ذهني نفسها فبدت كأنها تتراقص أمام عيني على الشاشة ... المظلاتالبيضاء وهي تهبط من السماء .. والقنابل وهي تتساقط من حولنا .. واحمد وهو يطلق بندقيته ويصيب .. ويصيب .. ثم يصرخ ويسقط على الارض .. وأنا أجري كالمجنون .. أطلق بمدفيتي على المظلات الهابطة .. فتسقط على الارض مثقبة ملطخة بالدماء ..

والقضاة لا زالوا يجلسون منتفشين كالديكة ، كأنهم مندوبو الله على الارض يوزعون عدالتهم المسمومة على البشر ، وأحنقني منظرهم.. وبدا لي كأن العالم قد انقلب رأسا على عقب .. أليسوا هم اليوم أولى بالاتهام .. هؤلاء من كانوا قضاة الامس .. وأي قضاة ..أليسوا .. أليسوا .. منى قرأت ذلك .. لا أذكر .. أليس الاستعمار هو الذي استخدم ربيبته النازية للقضاء على ثورات التحرر والاشتراكية في العالم !! يحاكمونهم اليوم لانهم أرادوا مقاسمتهم الغنيمة .. لانهم انقلبوا عليهم ..

أحنقني أن أراهم في موقف القضاة حتى ازاء السفاحين..وتلفت حولي أستطلع الوجوه .. وجوه بيضاء .. وصفراء .. وسمراء،أردت أن أعرف هل هذه الوجوه مقتنعة بوقوفهم موقف العدالة .. ولكن جميع الوجوه كانت مشغولة عني بمتابعة الفيلم .. وتوتر جسدي كله وارتعشت ، وغلت في رأسي دماء حارة كالبركان ، وتملكتني رغبة متيرة في أن أنهض وأصرخ بين الناس .. لا تصدقوهم .. انهم السفاحون الكبار .. انظروا ماذا يفعلون في فيتنام .. أنظروا كيف يعتدون ويتآمرون في كل بلاد الارض .. أنظروا ..

لكنني لم أنهض .. كانت فكرة محمومة قد طافت بذهني ، وتسمرت في مكاني خشية أن تخونني أعصابي فأركب حماقة ، ومع ذلك لم استطع أن أتمالك نفسي .. كنت أريد أن يعرف الناس الحقيقة ، وغابت عن ذهني الفتاة الشقراء ، والقاعة والناس..وكل شيء ، والصور تتابع أمام عيني .. مدن تخربها القنابل .. معارك وحشية .. بقايا أجساد بشرية ..

وسمعت همهمة عن يساري ، فملت برأسي نحو المرأة الاسيوية.. كان عن يسارها فتاة في حوالي الثالثة عشرة ، سألتها الفتاة سؤالا ، فمالت نحوها المرأة وهمست :

ـ لا أدري .. لا أستطيع متابعة الفيلم باللغة الروسية .. ولكن يبدو أنهم ضحايا القنبلة الذرية على هيروشيما ..

وابتسمت في نفسي ، ها هي امرأة تذكر قنبلة هيروشيما .. رغم الفضاة ، وهبطت حدة الحنق الذي في نفسي قليلا ..

والقضاة لا زالوا منتفشين كالديكة ، والادعاء يحاور ويداور ،

والمتهمون يجلسون صفا واحدا يبدو على وجوههم الوجوم .. ويخيم عليهم الصمت الرهيب .. وانتهت المحاكمة .. وصدرت أحكام..سجن .. اعدام .. ونال السفاحون جزاءهم .. وخفتت الصور على الشاشة .. النهاية .. وعادت الاضواء ، وما زالت في نفسي بقية من حنق .. هل يدرك الناس حقيقة القضاة .. !! والتفت بحركة لا ارادية الى الفتاة الشقراء متسائلا :

ـ هل أعجبك الفيلم ؟

ردت دون تفكير :

ـ لا أدري أيخدعون أنفسهم .. أم يخدعون الناس ؟

وأعجبت بما في قولها من فهم وذكاء .. فقلت :

ـ أوافقك الرأي .

وأراحني قول الفتاة ، وأسعدني خروجها عن صمتها ، فسألت :

ـ هل أنت روسية ؟

أجابت : ـ نعم .

قلت :

ـ انني عربي .. وأدرس الادب في جامعة موسكو .

فابتسمت ، وقالت :

ـ أنا أدرس النحت والتصوير .

فتماديت في الحديث قائلا :

ـ كم هو جميل أن يتعرف المرء بفنانة جميلة مثلك ..

تجهمت الفتاة فجأة ، وقالت في ابتسامة مصطنعة :

ـ شكرا ..

وخشيت أن تكون قد تذكرت مداعبتي الفظة ، حينما ربت ساقها بركبتي ، فاستاءت ، وآثرت أن أبتعد عن الموضوع ، فسألت :

ـ ألم تزوري بلادا خارج روسيا ؟

صمتت الفتاة لحظة ، ثم تسلل من بين شفتيها صوت مبحوح :

ـ كنت أعيش مع والدي في كوريا قبل الاعتداء الاميركي .

ـ لعل ذلك منذ وقت بعيد !؟

فهزت الفتاة رأسها في آسى ، وهمست في ابتسامة لم أدر معناها :

ـ كنت طفلة حينذاك .. ولكنني عرفت كثيرا من المشوهين .. مشوهي الحرب .

وصمتت فجأة ، كأنها ندمت على ما قالت .

وكان الناس قد نهضوا وافسحوا امامنا الطريق ، فنهضت بدورها ونهضت ، وشجعتني ابتسامتها الاخيرة على التمادي في التعرف عليها ، فسألت :

ـ هل أستطيع أن أراك مرة أخرى ؟

عاودها التجهم ، وردت بفظاظة :

ـ لا .. لا تستطيع ..

وفوجئت بالرد ، وآلمتني لهجتها ، خاصة وقد طلبت رؤيتها بشكل ودي ، وبصيغة تستطيع معها أن تقبل ، أو ترفض بطريقة مهذبة، ولم اجد مررا لفظاظتها ، فتلعثمت دون ان ادري ما أقول :

ـ لماذا .. !؟

تعثرت الكلمات على شفتيها :

ـ لا .. حينما .. لا أريد أن ..

ولم تجد كلمة تتم بها حديثها ، فاغرورقت عيناها بالدموع ... وتركتني وانصرفت .. ولاحظت عرجا في مشيتها ، وأنعمت النظر في ساقها .. كانت ساقا صناعية ، وهممت أن ألحق بها أو أقول شيئا.. لكنني لم أستطع ..

وتسمرت في مكاني ، وأخذت أرنو اليها وهي تبتعد قليلا .. قليلا .. ولم أعد الى وعيي الا بعد أن غابت عن ناظري .

موسكو — **محمد فكري**

خواطر في مدينة قريبة من البحر

أمثلما مرت عليك الليلة الاولى
تمر هذي الليلة الالف ؟
أيبقى الحرف مشلولا
ينخره المنفى ؟
أيبقى الغصن المقطوع مقطوعا
أوراقه تستمطر الجوعا
أوراقه تصفر ...
أوراقه تحت السماوات الغريبات تعري غصنا كالجذر مجهولا ؟

***

هل تعرف النجم على حزمة اوراق ؟
هل تعرف البحر بلا زرقة أعماق ؟
ومن ترى يمنح هذا المغربي : الدهشة الاولى
والخجل البصري ، والبسمة ؟
والنخل ، والعتمة ...
والبيرة السوداء ، والساحات ، والماء الذي ينهل مجهولا

***

أكلما لوّن هذا المطر القرميد بالماء .
أكلما أبصرت عصفورا على حائط
أكلما ارعدت الادواء اعضائي
واجهني النخل ... نحيلا ، غامضا ، مستوحدا ، نائي
قاماته تمنحني لحظة ايماء
وسعفه يهمس في العتمة أسمائي

***

تخجل أن تنسى ، ولا تقدر أن تضحك
وتعصب العينين حتى لا ترى جرحك
تريد أن تبقى قويا دون أن تقوى
وفي ظلام الصوت تنسى أن ترى صبحك
انك لا تهوى ، ولا تبصر من يهوى
كأنك الحداة والطائر
والبيت والمنفى
كأنك الاول والآخر

الجزائر — **سعدي يوسف**